محاضرات في أدب المركز و الهامش 2019-2020

المحاضرة الرابعة – الآخر بين الذات و الموضوع في الفكر العلموي

- **معرفة الآخر والسلطة:**

إن المتأمل في تاريخ الفكر الأوربي، منذ عصر التنوير ومرورا بالفترة الإستعمارية، يدرك مدى ترابط نشأة الهوية الأوربية بالحداثة من حيث استخدام الأولى للثانية لغاية بناء هوية لا فضل فيها للآخر الغريب في المساهمة في تشكيلها. وحتى يتم إقصاء هذا الآخر ذي الماضي الفاعل والحاضرالسلبي، كان لا بد من تجريده من صفة الفعالية الحضارية وحصره في دور الحالة الباتولوجية التي تستدعي تشخيصا علميا لإبراز أعراض مرض التخلف بغية إيجاد علاج " علموي" حداثي على النمط التنويري.

فكان أن قضت الثقافة الغربية ردحا من الزمن تبحث فيه عن سلطة معرفية تؤسس لعلاقتها بالآخر بواسطة العلم الدقيق، مما أفضى إلى نوع من التماهي بين الآخر والصورة التي يشكلها وعي الأنا الغربية عن هذا الآخر، لتتحول هذه الصورة في النهاية إلى حقيقة علمية هي خلاصة خبرة المستشرق الشخصية أو تحليلات عالم النفس أو أنماط بنيوية أبدعها الأنتروبولوجي .ولقد بدأت هذه الرحلة العلموية نحو الآخر في عز عصر الموسوعات حين طرح ديدرو فكرة البحث عن قانون شمولي وعام لا يتطرق إليه الوهن يحقق لنا معرفة علمية بالانسان، فاستثنى بداءة ما يدعى بالقانون الثقافي والذي يستند على الأعراف والتقاليد ساحبا منه صفة القانون ، واقترح استلهام مثل هذا القانون من طبيعة الإنسان [1]. لكن كيف يمكننا اكتشاف هذه الطبيعة؟ يجيب ديدرو بأن السبيل الوحيد إنما هو الدراسة الدقيقة للوقائع أو ما يمكن اختصاره في مفهوم المنهج. وتفصيلا لهذا المنهج، يعلن دو جيراندو كوريث للعقلية الموسوعية سأمه من التيه منذ قرنين في دروب النظريات العلمية العقيمة، ليستقر رأيه على فكرة الملاحظة كبوابة للخروج من نفق التأمل إلى سعة التجربة المفضية إلى القانون [2] . ويدفع دو جيراندو حلمه الطبيعي إلى أقصاه حين يتخيل مختبرا لدراسة" المتوحشين "بعدّهم أقرب إلى الطبيعة من المتحضرين الذين أفسدتهم المدنية واضطرتهم إلى الإحتكام إلى القانون الأخلاقي المصطنع .فبدل أن يعاني العالم الذي يدرس المتوحشين من سطوة الظروف الطبيعية في عين المكان (حشرات، حرارة لا تحتمل)، يقترح دو جيراندو أن ينقل المتوحشون إلى باريس، وحتى تكون الملاحظة العلمية دقيقة، فلا بأس من توفير الشروط الضرورية ليواصل المتوحش حياته بشكل طبيعي، وعلى رأس تلك الشروط عائلته .وهكذا " نمتلك في شكل مصغر صورة هذا المجتمع الذي انتزع منه .وعليه فالعالم الطبيعي لا يكتفي بإحضار غصن أو زهرة سرعان ما تيبس، وإنما يسعىإلى غرس النبتة والشجرة كاملة حتى تعطى لها إمكانية حياة جديدة على أرضنا ."[3] وهكذا تم إدراج علوم الإنسان على العموم، المتعلقة بالآخر الغريب على

[1] Todorov, Tzvetan, Nous et les autres, Points, Paris, 1989, p.37
[2] Ibid, p.41
[3] Idem

الخصوص ضمن العلوم الطبيعية، مما أدى إلى اختزال الإنسان –الآخر إلى موضوع والأنا إلى ذات، ولا علاقة بينهما سوى التضاد والمقابلة.

– **حضور الآخر في صياغة الأنا:**

فكان أن ارتبطت بهذه النزعة العلمية فكرة التقابل والتضاد والمواجهة لتتحول إلى " عماد فلسفة و تجارب كثيرة في الدراسات السيكولوجية والعلمية واللغوية.[4] "لو حاولنا أن نبحث عن الدوافع الهوياتية في تبني مثل هذه النظرة "العلموية "لوجدنا أن ذلك يعود في أصله إلى تجذر النظرة المركزية الأوربية في تعاملها مع ثقافة الآخر حيث عمدت إلى بناء سور تاريخي يفصلها عن بقية الثقافات الأخرى ويحدد خصوصيتها التي تقصي كل العناصر الأجنبية التي ساهمت في بلورتها، لتتحول الأنا إلى ذات والآخر إلى موضوع خارجي قابل للدراسة والفحص والملاحظة والتجربة.

ومن خلال مثل هذه الطروحات الشوفينية، ما فتئ الغرب يعلن عن نفسه بأنه واحد ووحيد في مواجهة باقي العالم اللامتميز.[5] فحينما وثق من نفسه ولم يعد يبالي بما يصمه به الآخر من همجية وتوحش راح يبلور مشروع هوية يقوم على تمجيد الذات مع استحضار للآخر[6]، ليس كعامل مساهم في تأسيس هذه الذات وإنما كأبشع صورة سلبية يمكن أن يعكسها هذا الآخر بالنسبة لهذه الذات .فإذا كانت هذه الذات تنويرية فالآخر ظلامي، وإذا كانت عقلانية فالآخر أسطوري خرافي، وإذا كانت متقدمة فالآخر متخلف وهكذا دواليك.

فالهوية الغربية، بعدما اكتمل بناؤها، راحت تضع لنفسها صورة تتماشى وموقعها الجديد في الخريطة العالمية كمصدر واحد ووحيد لقيم الرقي والتقدم، تعتمد في خطوطها الأساسية على المفاصلة بينها وبين الآخر .هذا الآخر الذي لابد منه لتكتمل صورة الأنا، يجب أن يبرز كعامل مزعج أعاق تشكل الهوية الأوربية في مرحلة من مراحلها .فحضوره التاريخي في صياغة الهوية الناشئة لا مراء فيه وإن اختلفت تقييمات هذا الحضور .فهو إن لم يتم إغفاله وتجاهله، فإنه يستدعى في الوعي الأوربي كعامل سلبي حال دون اكتمال صورة الأنا عبر تواصل تاريخي بين حلقاتها الحضارية أو عبر تقاطع بينها وبين فضاءات حضارية أخرى .وللأسف وإلى اليوم، ما زالت مثل هذه التصورات تسود بعض الأوساط الثقافية الغربية تغذيها قراءات مختزلة لتاريخ حضاري معقد قامت بها أسماء علمية ، سنتعرض لبعض منها في هذه الدراسة، أكسبت شرعيتها الأكاديمية هذه القراءات صفة المسلمات .ومنها انطلق المتأخرون لإعادة صياغة علاقتهم بالآخر مخيرين إياه بين استلهام النموذج التنويري كشرط لولج عالم الحداثة أو المكوث في خانة التخلف والإستبداد والتطرف.[7]

---

[4] ناصف، مصطفى، اللغة و التفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص.18

[5] الشرقاوي، عبد الكبير (ترجمة)، لقاء الرباط مع جاك دريدا، لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، دار توبقال، الرباط، 1988، ص.18

[6] المرجع نفسه، ص.27

[7] Revue *Courrier International*, Hors-série, Juin-Juillet 2003